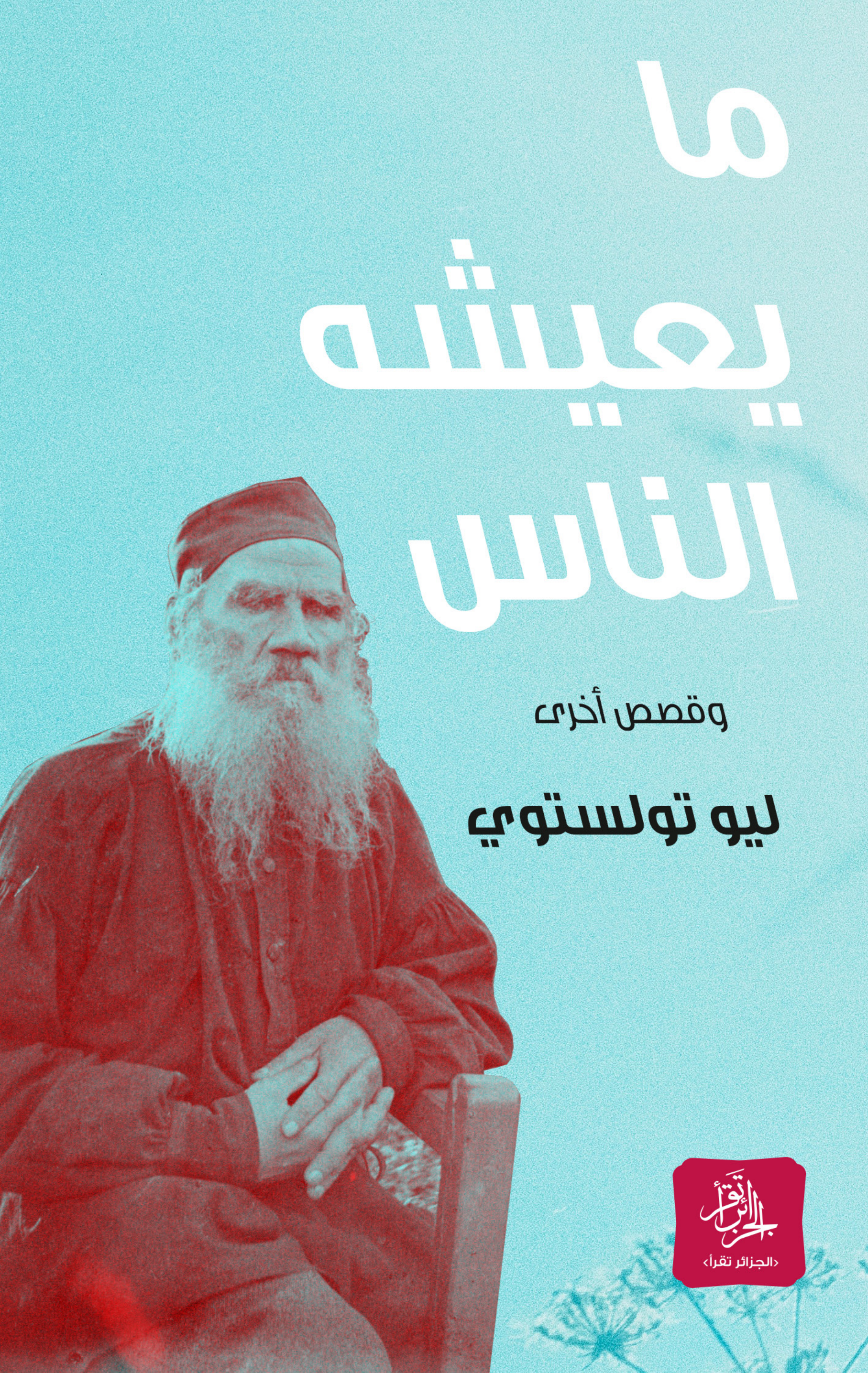

ما
يعيشه
الناس
وقصص أخرى
ليو تولستوي
الجزائر تقرأ
«الجزائر تقرأ»

العنوان: ما يعيشه الناس وقصص أخرى

المؤلف: ليون تولستوي

الجزائر تقرأ

8 شارع حساني يسعد، الجزائر الوسطى، الجزائر العاصمة/ الجزائر

إيميل: NASHR.DZREADS@GMAIL.COM

فايسبوك / تويتر / سنابشات / يوتيوب/ تلغرام **@dzreads**

إنستغرام **@dz_reads**

للمهتمين بالحصول على كتبنا، يرجى طلبها من متجرنا الإلكتروني، توصيل لغاية باب البيت

DZREADS.COM



يمكن الحصول على هذا
الكتاب وغيره من كتب
الجزائر تقرأ الأخرى
وماتشتهيه من كتب عبر
متجرنا الإلكتروني مع توصيل
لباب البيت

DZREADS.COM



ما يعيشه الناس

ترجمة: مصطفى جميل مرسي

كان الإسكافي (سيمون) يعيش مع زوجته، وأبنائه في شظف من العيش يسكنون كوخا صغيرا مغبرا، بأجر من المال يؤدونه لصاحبه الفلاح، وكان سيمون يكسب رزقه من عمله في جهد وجحد، وينفق كل ما تمسكه أنامله من دراهم على إطعام عائلته، وما أندر الخبر في ذلك الحين!

وكان للرجل وزوجته مدرعة من صوف يرتديها كل منهما حينا في الشتاء، حتى رثّت وبليت، وقد تقّضى عام وهو عازم على شراء مدرعة أخرى، فما أن أقبل الشتاء، حتى أمكنه أن يقتصد بعضا من المال: ثلاث (روبلات) وخمس (روبلات) وعشرين (كوبك) يدين

بها بعضا من زبائنه!

وتهيأ ذات يوم ليؤم القرية، فارتدى (مطرف) زوجته على قميصه، ثم لبس ثيابه الأخرى فوق ذلك، ووضع الثلاث (روبلات) في جيبه، واقتطع لنفسه عصا يتوكأ عليها، واتخذ سبيله إلى القرية بعد أن أفطر...

وفي طريقه راح يحدث نفسه: (سوف أحصل على الخمس (روبلات) وأضيفها إلى الثلاث (روبلات) فيصير ما معي كافيا لشراء مقدار من الصوف لمدرعة الشتاء!)

ولما بلغ القرية بعد لأي طرق باب أحد الفلاحين فلم يجده بالدار، ووعدته زوجة الفلاح أن النقود سوف تصله في الأسبوع القادم! وطرق (سيمون) باب فلاح آخر، فأقسم له هذا أن يديه صفر من المال، وسيدفع له كل ما معه (عشرين كوبك) قيمة إصلاح حذاء قام سيمون برتقه!

فحاول (سيمون) أن يشتري (صوف المدرعة) بما

معه، وبقرض يؤديه بعد حين، فرفض البائع قائلا في صوت ساخر؛ (إيتني بالمال، وسوف يكون لك ما توده من الصوف، فإنا نعلم كيف يحصل المرء على دينه!)

فأحس سيمون بالخور يسري في جسده، والقنوط يتسرب إلى فؤاده، فقام إلى حانة حيث نهل كأسا من الخمر بعشرين (كوبك)، وقفل راجعا إلى داره!

كان للخمر أثرها في سيمون، فسرى الدفء في عروقه، وزادت من قوته ونشاطه. فراح يفكر: (إني أحس بجوانحي تختلج دفئا وحرارة، مع أني لست مرتديا مدرعة من الصوف، لقد تناولت قطرة من الخمر فكان لها أثر النار تسري حرارتها في عروقي، فلست بحاجة لمدرعة من الصوف أقي بها زمهرير الشتاء!!)

ليت زوجتي ترتشف قليلا من الخمر. فتحس ما أحس!! صه... ويلك... أتود أيها الرجل أن تقضي عليك زوجتك إن خبرتها أنك تناولت بعضا من الخمر.. إنها

سوف تحطم الآنية على رأسك الفاضل! يا له من سائل عجيب يدفع النشوة إلى الروح والحرارة إلى الجسم!! لست أبالي شيئا... ولكن زوجتي سوف تكتئب ويؤلمها أني عدت دون صوف المدرعة! ليس علي من جناح!! فقد طلبت حقي فأنكره واحد. وأعطاني الآخر عشرين (كوب)... هه... وماذا أنا فاعل بها.؟! لست أدري غير أن أشرب بها... إن الواحد من هؤلاء يملك الأرض والدور والحيوان... ثم يبخل علي بحقي حقي الذي أعمل سحابة يومي وجنحا من ليلي كي أظفر به... فإذا ما انتهيت أنكروه علي يا للعار. إن الواحد منهم لينعم بالدقيق والطعام أما أنا فأنفق ثلاث (روبلات) كل أسبوع للخبز وحده... فإذا ما عدت إلى الدار وجدت الخبز قد أكل فأبيت على الطوى! وهل أملك غير ذلك؟! ومن أين آتي بالنقود؟! أمن (هؤلاء) الناس الذين لا يقيمون عن الطعام إلا وقد أصيبوا باللظة!!)

كانت تلك الأفكار والخواطر تضطرب بين جوانحه. حين أدرك – في سيره – الكنيسة في منعطف الطريق.

فرأى جسدا كالثلج في نصاعته! فراح ينعم النظر دون أن يتحققه أيكون ثورا! لا ليس شبيها بالثور! إن له رأسا يشبه رأس لإنسان! بيد أنه ناصع البياض!)

واقترب منه حتى أمكنه أن يجتلي الأمر! وكم كانت دهشته حين أدرك أنه إنسان عار... يجلس إزاء الكنيسة في سكون يدفع الرهبة إلى القلب... فطار فؤاده هلعا، وتلبسه الخوف فزعا: (لا بد أن أحدا قد قتله. . وخلفه هنا. . سوف أمسك عليّ فضولي أو أصاب بأذى...)

وأنطلق في سبيله ولكن التفت إلى ما وراءه فرأى الرجل الجالس ينظر إليه... فراع ذلك سيمون وزاد من جزعه. (أأعود إليه أم أنطلق؟! إن أنا عدت إليه فسوف يحدث مالا يرضيني. بل يجلب الضر إلى نفسي فما وجدت ثمت إلا لسوء... ولعله يثب علي ويخنقني. وحينئذ لا تنفعك رحمتك ولا تشفع لك شفقتك... وماذا أنا فاعل بإنسان عار؟! لست بمستطيع أن أخلع عليه ما لا أملكه. دعه فللسماء شأن معه!) وأسرع سيمون

في خطاه لا يلوي على شيء. بيد أن ضميره أخذ يؤنبه. فتوقفت خطاه. وأخذ يهس في حيرة ويهمهم في وجل: (ماذا أنت فاعل يا سيمون؟! هب أن الرجل يلفظ آخر نفسه! ألا تتقي الله في فرارك منه ورغبتك عن عونه!! أأنت في وفر من المال حتى تخشى أن تسرق؟! يا للعار يا سيمون!) فانقلب آيبا إلى الرجل ونفسه مضطربة وقلبه يخفق.. .

دنا سيمون من الرجل الغريب، وراح يجيل الطرف فيه. . فرآه شابا على جمال وحسن! وليس على جسده أثر لجرح أو شج وقد جلس ثم معتمدا ظهره إلى جدار الكنيسة لا يرفع طرفه إلى سيمون من الوهن والضعف. فلما أحس بسيمون رفع رأسه إليه، وألقى إليه بنظرة. كانت كافية لأن تستدر كل ما يختلج بين جوانح سيمون من عطف ورفق وحب. فخلع حذاءه. وألقى عن نفسه رداءه. وقال في صوت خفيض فيه حنان وفيه رأفة: (ليس ثمة مجال للحديث!! هيا ارتد هذا الثوب.) وأمسك سيمون بمنكبي الرجل، وأعانه على النهوض...

فلما نظر إليه - حينما انتصبت قامته - ألفاه... مديد العود... جميل الوجه... فألقى على كتفيه رداءه وأعانه على لبسه وهم (سيمون) يخلع قبعته ليضعها على رأس الغريب. فأحس برأسه يقشعر من البرد فقال في نفسه: (أني أصلع! أما هو فله غدائر معقوصة فلا خوف عليه! بل يحسن أن ألبسه حذائي...) فأقر قبعته على (صلعته) وأجلس الرجل. وجعل حذائه في قدميه... وهو يقول في جرس طيب عطوف (هيا. أيها الصديق. استشعر الدفاء ودع باقي الأمور تجري وفق مرادها أفي قدرتك أن تسير؟!)

فنهض الرجل ونظر في امتنان إلى سيمون دون أن ينبس ببنت شفه فقال سيمون: (لماذا لا تتكلم؟! أن البرد لقارص فلا بد من العودة إلى المنزل توكأ على عصاي وإلا أحسست بوهن وخوار. فاعتمد على ساعدي...)

وخطا الرجل في تعب وجهد. وفي خلال السير رفع سيمون صوته قائلا:

(من أين أنت؟!)

- لست من هذه البقاع!)

(كذلك حدست. فأني أعرف القوم هنا! ولكن كيف قدر لك أن تصير هكذا جوار الكنيسة!؟)

(لست أدري!)

- أساء أحد معاملتك؟!

- لم يتعرض لي أحد بسوء؟ لقد عاقبني الله...

دون ريب... هذا هو حكم الله. سوف تجد عيشا ومأوى أينما ذهبت! فأين تروم!)

- لست أدري!)

فتولى سيمون الدهش. فما كان الرجل صاحب سوء أو خبث وتجلى من لهجته أنه خالص القلب. ولكنه لا يعلم عنه شيئا. (من يدري ما سوف يحدث!!) والتفت إلى صاحبه وقال: (حسنا! تعال إلى داري على الرحب والسعة!)

هبت الريح عاتية، فياضة بالصقيع. فسرت

القشعريرة في جسد سيمون بعد أن أفاق من نشوة الخمر وذهبت عنه حرارته فأخذ يدثر نفسه برداء زوجته بعد أن خلع رداءه... وراح يتحدث إلى نفسه: –

(ولآن، وقد ذهبت الخمر، أعوزنا صوف المدرعة، لقد انطلقت اليوم كي أعود بالصوف، فما عدت بالصوف ولا بردائي أنا، وفوق ذلك أتيت معي برجل عار! سوف تستاء (مترونا) من ذلك!)

وحينما جالت بفكره (مترونا) زوجته أحس بالانقباض والألم يتغلغل في جوانحه، بيد أنه عندما ذكر صديقه الغريب ونظرته إليه في امتنان وحمد رقص قلبه بهجة ومراحا...

نهضت (مترونا) زوجة سيمون... ذلك اليوم بعبء واجبها المنزلي خير نهوض وانتهت من عملها مبكرة... قطعت الأخشاب... وحملت الماء... وأطعمت الصغار... وتناولت هي وجبتها... وجلست ترقب أوبة زوجها... وراحت تسال نفسها:

(أيكفي الخبز... أم عليها أن تعمل بعضا منه الآن...

لو أن (سيمون) تناول طعامه في المدينة... ولم يكن في حاجة للخبز في العشاء... فسوف يمتد أجل الخبز يوما آخر... لست بقادرة اليوم على أن أصنع خبزا... وسوف أدبر كل شيء حتى يكفينا إلى يوم الجمعة القادم...). . ووضعت مترونا قطعة الخبز الباقية في مكان حريز... وجلست ترتق ثياب زوجها... وفي غضون ذلك راحت تفكر كيف يشتري زوجها صوف المدرعة كي تقيهما برد الشتاء...

(آه... لو أن البائع لا يخدعه... أن زوجي لغرّ! سهل على من يقوده... انه لا يخدع أحدا... ولكن الطفل يستطيع أن يعبث به... ثماني روبلات مقدار كاف لشراء أجود الأصواف وأمتنها! كم كنا نرتعد بردا ونرتجف من الصقيع في الشتاء الماضي... وما كنت أستطيع أن أهبط النهر أو أذهب إلى مكان آخر ولكن لقد بكر سيمون في الذهاب!! وما عاد إلى الآن... آمل أنه لم يذهب إلى الحانة!!

ما كادت (مترونا) تردد هذه الخواطر في ذهنها...

حتى طرقت أذنها أصوات وأحست أن بعضهم دلف إلى الدار فقامت تجتلى الأمر... فأبصرت رجليه: سيمون زوجها، وشخصا آخرا. عاري الرأس ينتعل حذاء زوجها!! لم تره من قبل!)

وحينما لاحظت أن زوجها تفوح منه رائحة الخمر... وليس عليه رداءه... ولا يمسك بيده حزمة من الصوف... أخذ مرجل غضبها يفور...

وأفسحت لهما حتى دلفا أمامها، ثم تبعتهما... ووقع بصرها على ذلك الرجل الغريب وقد لبس رداء زوجها... فلما دخلا الغرفة وقف الرجل الغريب لا يتحرك ولا يرفع بصره إليها... فقالت في نفسها (لعل السكر أخرسه وذهب بعقله...)

وعبست بوجهها وقطبت جبينها... ووقفت جوار (التنور) ترقب ما سوف يعملان!

وخلع (سيمون) قبعته... وجلس على أحد المقاعد... وكأن الحال يجري على ما يرام.

- (هيا مترونا!! أن كان العشاء معدا؟! فأتبنا به!)

فزمجرت (مترونا) كاللبؤة الغاضبة... ولم تتحرك من مكانها جوار التنور - فرأى سيمون بوادر الشر تلوح في وجه زوجته... فأراد أن يهدئ من روعها ويظهر أنه لم ير شيئا... وقدم لصاحبه كرسيا وقال له في مرح (اجلس ودعنا نصيب شيئا من الطعام! هيا (مترونا) أما أعددت لنا شيئا؟!)

كانت نفس مترونا تلتهب غضبا وتغلي حنقا فانفجرت قائلة:

- (بلى... لقد أعددت الطعام... ولكن ليس لكما! يخيل لي أنك أنفقت نقودك في الشراب... لقد ذهبت كي تحضر صوف المدرعة... فما عدت إلا ومعك شريد عار عربيد... ليس لدي طعام للسكارى!)

- (كفى مترونا... أمسكي عليك لسانك! يحسن بك أن تسألي أي إنسان هذا؟) - بل يحسن بك أن تخبرني ماذا فعلت بالنقود؟!)

فأخرج (سيمون) الثلاث (روبلات) من جيبه وقال: (ها هي ذي النقود. . لم يؤد (تريفنوف) ما عليه. !

ووعدت زوجته بأنه سوف يدفع...) فلم يهدئ هذا من غضب مترونا... فهو لم يحضر الصوف... بل أنه ألبس وأحدا عاريا ثوبه وأتى به إلى بيته... فاختطفت النقود من يده لتضعها في مكان أمين وقالت لزوجها... (ليس عندي طعام... وما بمقدورنا أن نطعم كل سكير عار في العالم!)

- قلت كفى مترونا خير لك أن تسمعي أي إنسان هذا -!)

- (أمن الحكمة أن أنصت إلى سكير؟! لقد كنت اعرض عن الزواج بك لهذا. !)

حاول سيمون أن يخبر زوجته أنه لم يشرب إلا بالعشرين (كوبك)... وحاول أن يبصّرها بالحالة التي وجد عليها صاحبه الغريب... بيد أن مترونا كانت تنطق بسرعة هائلة... وتذكره بأشياء مضت منذ عشرين عاما... وراحت تتحدث وتتحدث، وأخيرا أمسكت بسيمون وراحت تصيح:

(أعطني ثوبي... إنه الوحيد الذي أملكه! وقد أعرته

لك كي تحضر صوف المدرعة... ناولنيه أيها الكلب الأجرب... وليعبث بك الشيطان!!)

فأخذ سيمون يخلعه... ثم ناوله إياها... فألقته على رأسها عمت بالخروج إلا أنها توقفت! وقد جال في نفسها أن تعرف سر ذلك الرجل الغريب فقالت لسيمون:

لو أنه رجل مهذب لما أعجزه أن يستر نفسه بثوب يشتريه! أيمكنك أن تخبرني أين عثرت (عليه)؟!)

- هذا ما كنت على وشك أن أخبرك إياه... حينما أدركت الكنيسة وأنا في طريق العودة - أبصرته جالسا عاريا يكاد أن يتجمد من البرد والصقيع، فقد بعثني الله إليه قبل أن يقضى عليه الجوع والعرى، فماذا كان علي أن أفعله سوى أن أخلع ثوبي وألبسه إياه وآتي به معي؟ فما كان له من مأوى!! ما الذي يدرينا كم كان يلاقي من العذاب الشديد؟ لا تغضبي يا مترونا، أن هذا ذنب غير مغتفر، واذكري أننا سوف نموت جميعا يوما ما!)

وارتفعت ألفاظ الغضب إلى شفتي (مترونا)، ولكنها ما لبثت أن ماتت قبل أن تلفظها، فقد نظرت إلى الرجل الغريب وهو جالس في سكون ووداعة على مقعده، يداه معقودتان على فخذيه، ورأسه ساقط على صدره، وعيناه مغمضتان، وجبينه مقطب، كان الألم ينهش فؤاده فينعكس على صفحة وجهه!

فصمتت (مترونا) على مضض... وقالت سيمون في صوت شاع فيه الرجاء والأمل: ألا تحبين الله يا مترونا؟!)

فما سمعت (مترونا) هذه الكلمات، وألقت طرفها ثانية إلى (الصاحب الغريب) حتى فاض قلبها إيمانا... وراحت الرحمة تدب في نفسها... وأخذ الحنان والعطف يهز فؤادها!

فذهبت إلى (التنور) وأتت بالطعام... ووضعت قدحا على المائدة وصبت فيه بعض الشراب الساخن ثم أحضرت قطعة الخبز من مخبئها ومعها سكينان وملعقتان... وقالت في صوت يفيض عطفا. تفضل

فتتناول بعض الطعام!

وأدنى سيمون المائدة من صاحبه. وفتت الخبز ووضعه في المرق وراحا يأكلان. . وجلست مترونا في جانب من المائدة! ترقب الضيف في نظرات فاحصة. فزاد عطفها عليه ورأفتها به.

وحينئذ أشرق وجه (الغريب) وأضاء. فكأنه البدر يرفل في هالة بالسماء. . ورفع عينيه النجلاوين إلى (مترونا) ونظر أليها نظرة وديعة. وافتر ثغره عن ابتسامة حلوة عذبة...

ولم يكادا يفرغان من الطعام، ويقومان عن المائدة... حتى أقبلت (مترونا) على (الضيف الغريب)... تسائله:

- (من أي البلاد أنت؟!) فأجابها في صوت شاعت فيه الوداعة (لست من هذه البقاع!)

فقالت دهشت (ولكن. ما الذي رمى بك إلى الطريق؟)

- (لست أدري!)

- (أتعرض أحد لك بسوء؟!)

- (كلا! لقد عاقبني الله تعالى!)

- (أما كنت ملقى على قارعة الطريق؟!)

- (بلى عرياناً ومثلجاً، وقد لمحني زوجك الكريم (سيمون) فأدركته الرحمة فخلع ما عليه، وألبسني إياه، وأحضرني هنا... فأطعمتني من جوع، وآويتني من برد... وأشفقت عليَّ من التشريد والموت... فجزاك الله خيراً).

فنهضت (مترونا) وأحضرت له بعضاً من ثياب زوجها القديمة... وأعدت له مناماً على كثب من التنور يقضي فيه ليلته باتت (مترونا) في مضجعها تتقلب فلم يزر جفنيها الكرى وما فتئت ذكرى (الغريب) تراود مخيلتها...

بدا لها كيف أتى على نصيبهم الأخير من الخبز... فلم يدع لهم شيئا إلى العند... فأحست بالحزن يساور نفسها... والألم يتغلغل في قلبها... بيد أن تلك البسمة التي رفعها إليها (الضيف الغريب) جالت في صفحة فكرها وجلبت السكينة إلى نفسها وقالت تحدث

زوجها في خفوت، وقد كادت أن تأخذه سنة من النوم:
-

(سيمون!) فأجابها في توجس وضيق: (ماذا؟!)

- (لقد أتيتما على آخر ما عندنا من الخبز... ولست أدري ما الذي نفعله غداً!! ليتني أستعير بعضاً من جارتنا (مارثا!)

- (إذا امتد بنا الأجل إلى الغد... فسوف نرزق من حيث لا ندري!)

فلبثت المرأة برهة لا تنبس... ثم قالت في رقة (يخيل إلي أنه رجل طيب كريم، ولكن ما الذي يحمله على الصمت فلا يكشف لنا جلية أمره؟!)

- (أحسب أن لديه علة تمنعه!)

- (سيمون!)

- (نعم!)

- (ما بالنا نعطي! وليس ثمت من يتفضل علينا بعطاء)

فحار سيمون جواباً... ثم لم يلبث أن قال لها: - (دعينا من هذا الحديث!) وانقلب على جانبه... وراح يغري بعينيه النوم بعد أن جفاه!

وفي الغداة... أفاق (سيمون) من نومه، وكانت الأطفال تعبث في البيت صياحاً ولهواً، وانطلقت زوجته لتسأل جارتها بعضاً من الخبز... أما الغريب فكان يجلس على مقعده - في ثياب سيمون الخلقة - يرمي طرفه إلى السماء - وفي عينيه توسل ورجاء، وقد عاد إلى وجهه بهاؤه وضياؤه عن البارحة...

فقال (سيمون) في طلاقة ومرح: (هه! أيها الصديق... إن السغب يدعو الإنسان إلى السعي وراء القوت، والعرى يضطره إلى طلب الملبس... فعليه أن يعمل ويكد... فما الذي تعرفه من المهن؟!)

- (لست أدري شيئاً!)

فقال سيمون في صوت ملئ بالدهش.

- (إن كان للإنسان رغبة في التعلم فسيتعلم؟!)

- (وإن لفي نفسي رغبة إلى ذلك!) - (ماذا تدعى؟!)

- (ميشيل...)

- (حسناً يا ميشيل... إن لم تكن في نفسك رغبة إلى أن تحدثنا عن نفسك، فهذا من شئونك... غير أنه يجب أن تتكسب رزقك، فإن عملت بما سأشير عليك به! فسوف تجد عندي طعاماً طيباً، ومأوى حسناً.)

- (جزيت خيراً... وإني لمطيع لما تقول!)

- (إن ذلك غاية في البساطة... فانظر إلي.) ثم أمسك (سيمون) بخيط، ولفه حول إبهامه وراح يجدله في براعة... فراقبه (ميشيل) ثم أخذ قطعة من الخيط وثناها على إبهامه وانفك يجدلها كما فعل سيمون وفي براعته وإجادته، وعلمه سيمون كيف يشمع الخيط ويقطع الجلد ثم يخيطه... فبرع (ميشيل) في كل ذلك... حتى أصبح ماهر البنان كأنه مارس تلك الحرفة طيلة حياته...

كان لا يبرح يعمل ويعمل دون توقف، ولا يطعم غير القليل، حتى إذا ما انتهى من عمله، جلس صامتاً

يحدق في سماء الغرفة وفي عينيه ذلك الرجاء وذلك التوسل... ولم يكن يخرج إلى الطريق، بل يظل حبيس الدار، رهين العمل، لا ينطق إلا بكلمات قلائل يضطر إليها... وما ضحك يوماً، وما ارتفع لسانه بفكاهة... ولم ترتسم على وجهه ابتسامة أبداً، إلا تلك التي أضاءت على جبينه يوم أن قدمت إليه (مترونا) العشاء!

وتتابعت الأيام وتعاقبت الشهور... وميشيل يعيش ويعمل جهده مع (سيمون)... وجرى اسمه على كل لسان، وطبقت شهرته في كل مكان... حتى طفق الناس يأتونه من كل صوب وفج يعاملونه... حتى ازدهر حاله. وزال عنه بؤس الحياة وعسرها.

كان (سيمون) وميشيل يعملان ذات يوم حينما جلجلت بباب دارهم الأجراس فأسرع كل منهما إلى النافذة، يستجلي الأمر... فأبصر بعربة (زلاقة على الثلج) يجرها ثلاثة من الجياد المطهمة الصافنة... تقف بباب الدار، وخف تابع إلى بابها ففتحه...

فظهر منه سيد جليل مهيب – عليه جبة من الفرو الثمين – ووقف بباب الكوخ، فسارعت (مترونا) إليه تفتحه على مصراعيه، وترحب بمقدم الضيف الجليل فطأطأ الرجل رأسه عند ولوجه الباب... فلما انتصبت قامته الممشوقة كاد أن يمس رأسه سقف الغرفة فنهض سيمون وانحنى إجلالاً للضيف وقد سرى إلى نفسه الدهش... فما رأى مثل هذا الرجل في عظمته ورفاهيته فقد كان سيمون هزيلا نحيفا، وميشيل صدعا رفيعاً... كما أن (مترونا) كانت ضاوية الجسد جافة العود...

أما هذا السيد، فيخيل لمن يراه أنه من عالم آخر وجنات مكتظة مليئة... ووجه مطهم شاعت فيه الحمرة الوردية، وجسد زهم كالفيل في هيئته وبدانته، وعنق أقمد كعنق الثور وما أن جلس على المقعد حتى قال (من منكم صاحب العمل؟!) فدنا منه سيمون وقال في صوت أصحل من الرهبة (أنا يا صاحب السعادة!!)

فصاح السيد بتابعه (هيا.. أحضر الجلد... يا (فدكا) فلما أحضره، ووضعه على المائدة... قال السيد مشير إليه: - (أنظر أيها (الأسكاف) أترى هذا الجلد؟)

- (أجل يا صاحب السعادة... إنه أثمن جلد رأيته في حياتي!)

- (أبمقدورك أن تصنع لي حذاء منه؟!)

- (أجل يا صاحب السعادة!

- (أتستطيع!؟ حسناً... فلا يغب عن بالك لمن سوف تصنع هذا الجلد الثمين... أستمع... ينبغي أن تجعل لي منه حذاء أحتذيه عاماً كاملا... لا يبلى ولا يخلق. أفهمت إن لم يكن بمقدورك هذا، فصارحني... فإني أود حذاء أحتذيه عاما بأكمله... وإني لأحذرك الآن وإلا فسوف يكون مستقرك السجن وإذا لم يبل في مدى عام... فسوف أمنحك عشر روبلات نظير ذلك...)

فارتعدت فرائص (سيمون) وعجز عن الكلام... والتفت إلى (ميشيل) ووكزه قائلاً في همس وحسيس (أنأخذ هذا العمل على عاتقنا؟!) فأومأ (ميشيل)

برأسه موافقاً... فانفرجت أسارير (سيمون) وسرى عنه همه وجزعه... وراح يقيس قدم السيد... يتعرف عسيبها ويقدر أخمصها... ويسجل ذلك على وريقة تعنيه على صنع الحذاء... فلما انتهى من ذلك قال له السيد وهو يجول طرفه في أرجاء الكوخ.

- (لا تجعلها تضيق بقدمي!)... فلما وقع طرفه على (ميشيل) قال في تساؤل:

- (من هذا؟!)

- (إنه عامل عندي... وسوف يتشرف بخياطة حذاءك) فتحدث السيد الجليل إلى ميشيل قائلا (أنت يا ذا... لا يغيب عن بالك أني أود حذاء مريحاً... يمكث عندي سنة... هه... سنة بأكملها!)

نظر (سيمون) إلى (ميشيل)... وكان هذا يحدق في ركن الغرفة فوق السيد... وقد شرد خياله عما هم فيه...

. وكان يحدق... ويحدق، وعلى غرة ارتسمت على ثغره تلك الابتسامة العذبة، وأشرق وجهه وأضاء...

فزمجر السيد قائلا:

- (فيم تحملق أيها الأبله؟! خير لك أن تنظر إلى ما يدر عليك رزقك!)

فقال سيمون (سيعد لك الحذاء يا صاحب السعادة... في الحال...) فنهض السيد وهم بالخروج والغضب يحمر في عينيه، واستقر في عربته فانطلقت تجلجل أجراسها... فلما اختفت في منعطف الطريق... قال سيمون - وما زال الدهش يسيطر على نفسه - (هذا مثال لإنسان جبار... لا يقتله المرؤ ولو بمطرقة... وأحسب الموت يتخوف من جبروته... فلا يمس له جسداً!) ثم حدث ميشيل قائلاً:

(حسناً لقد أخذنا على عاتقنا أن نصنع حذاء له... ولكن ينبغي ألا يكون ذلك سبباً في متاعب جديدة. . إن الجلد لثمين وإن صاحبه لجاد في طبعه... فيجب ألا نخطئ معه هيا... يا ميشيل، إن عينيك أدق من عيني، ويديك أبرع من يدي، فهاك الجلد، فقطعه حسب المقياس... وسوف أخيطه أنا!)

فبسط (ميشيل الجلد على المقطع ثم طواه طية واحدة... وراح يقطعه بالأزميل...

كانت (مترونا) ترقبه في عجب ودهش... فقد طالما كيف تحذي النعال وأدركت أن (ميشيل) لا يقطع الجلد على طريقة الأحذية... بل لشئ آخر لا تعرفه هي، فقالت في نفسها (لعلي لا أعرف شيئاً عن صناعة الأحذية للسادة والأشراف! وأحسب أن ميشيل يعرف المزيد عنها... سوف لا أتطفل عليه!)

فلما فرغ ميشيل من القطع... أمسك بخيط واحد وراح يخيط الجلد - كأنه من الخفاف - لا بخيطين كما تخيط الأحذية فعاد الدهش إلى (مترونا) من جديد... غير أنها أمسكت عن تدخلها...

ومكث ميشيل يعمل حتى وافت الظهيرة... وقام سيمون يلقي نظره إلى ما أتمه ميشيل. .

فلم يلبث أن راعه ذلك وقال في أحيح وعجب: (آه! كيف تفعل هذا يا ميشيل؟! لقد لبثت معي سنة بأكملها - لم تأت أثناءها بخطأ قط فكيف تقع في

هذه الغلطة التي ستوردنا مورد الهلاك! لقد قال إلينا السيد أنه يود حذاءاً. وها أنت قد جعلت له من جلده الثمين خفاً... سوف يثير حنقه علينا... وما في قدرتنا أن نأتي بجلد مثله... لقد حطمت حياتي يا ميشيل!)

فما وفيما هو يعلك ألفاظاً من التوبيخ والعتاب... حتى سمعوا طرقاً على الباب وأبصروا من النافذة رجلاً يترجل عن جواده ويربطه في حلقة الباب... ففتحت له (مترونا)... وكان ذلك الرجل هو التابع الذي صحب (السيد الجليل) في الصباح... فقال لهم: (لقد بعثت بي سيدتي في أمر الحذاء!) فقال سيمون في جذع:

- (ماذا عن الحذاء؟!)

(إن سيدي ليس في حاجة إليه! فقد مات!)

- (هه! أحقاً هذا؟!)

- أجل... لقد دهمه الموت وهو في مركبته! فلما بلغنا المنزل... جاء الخدم يعاونونه... فقد حرجت جثته على الأرض كالكيس الممتلئ... وقد بعثت بي سيدتي

لأقول لكم إن السيد الذي أتاكم هذا الصباح ليس بحاجة إلى الحذاء... بل ينبغي أن تعجلوا بعمل خف لجثته... كي أحمله إليها الآن.)

فقام ميشيل... وضم بقايا الجلد إلى الخف بعد أن مسحه بمئزرته وسلمه إلى الخادم الذي انطلق به قائلا: (وداعاً أيها السادة!)

كرت السنون... وها هو ذا ميشيل يعيش عامه السادس مع سيمون وعائلته لم يتحول عما درج عليه... ولم يتغير شئ من طبعه... لا يخرج أبداً من الدار... ولا يتحدث إلا بمقدار ولم يرتسم الابتسامة على شفتيه إلا مرتين لا تثلثهما أخرى...

واحدة حينما تفضلت عليه (مترونا) بالطعام... والثانية حينما كان يحدق في ركن من الغرفة فوق (السيد الجليل) وكان سيمون على وفاق مع عامله. ولم يسأله يوماً من أين أتى بل كان في خشية من أن يرحل ميشيل عنه...

وبينما هم جميعاً في الدار ذات يوم... وكانت

(مترونا) تضع إناء على النار، والصغار يمرحون في لهوٍ وعبث، وسيمون جالس يخيط حذاء في يده... أما ميشيل مستغرقاً في عمله على كثب من النافذة...

ووضع أحد الأطفال يده على كتف ميشيل. ونظر من النافذة وصاح قائلاً:

(أنظر... يا عم ميشيل، هناك سيدة معها بنتان صغيرتان يظهر أنها تريد دارنا إن واحدة من البنات تعرج في سيرها!) فألقى ميشيل بما معه وسارع ينظر من النافذة إلى الطريق... فتعجب سيمون، فما رأى (ميشيل) ينظر يوماً إلى الطريق في هذه اللهفة... فدعا ذلك سيمون إلى أن ينظر هو أيضاً كي يستبين ذلك الشيء الذي أثار ميشيل. فرأى سيدة حسنة الهندام تتجه حقاً إليهم وتقود طفلتين عليهما أردية من الصوف وشمائل من الفرو... يعجز المرء عن أن يميز إحداهما عن الأخرى إلا تلك التي يعتري ساقها اليسرى شئ من العرج.

وولجت السيدة بطفلتيها الغرفة... وقالت في صوت

رقيق

- (سعدتم صباحاً... أيها القوم الطيبون؟!)

فقال (سيمون):

- (سعدتي صباحاً... سيدتي الفاضلة... ماذا في مقدورنا أن نعمله لك؟!)

فجلست السيدة على مقعد... وقد التصقت بها الطفلتان في خوف ممن في الكوخ.

- (أود... حذاءين من الجلد لهاتين الطفلتين، للربيع!)

- (إننا لم نصنع من قبل مثل هذه الأحذية الصغيرة... غير أننا قادرون على ذلك... إن مساعدي (ميشيل) أستاذ صناع في هذا!)

وألقى سيمون بنظره إلى ميشيل... ليرى أثر الإطراء والثناء عليه... فوجد هذا جالساً يحدق في الطفلتين الصغيرتين فانتاب سيمون العجب وتولاه الدهش... حقاً كانت الطفلتان جميلتين لهما وجنتان وردية

وشعر معقوص وعيون نجل... ترتدي كلتاهما ثياباً فاخرة من الصوف والفراء... بيد أن سيمون لم يفطن إلى سر تحديق ميشيل إليهما كأنه يعرفهما من قبل!

كان في حيرة من أمره... فانطلق يحدث السيدة ويقدر الثمن معها. . وبعد مساومة وإقرار... هم أن يأخذ مقياسهما فقالت السيدة وهي ترفع قدماً للبنت العرجاء (إن هذه القدم عرجاء فاعمل لها حذاء على حدة... أما القدم الأخرى وقدمي الطفلة الثانية... فهي صحيحة متشابهة وحجمها واحد... إنهما توأمتان...)

فسجل سيمون ما قاسه على وريقة صفراء... وقال يحدث السيدة: -

- (ما الذي حدث لها؟! فأصابها بهذا العرج... إنها تبدو جميلة... أو ولدت هكذا؟!)

- (كلا... فلقد حصرت أمها قدمها فالتوى...)

فتعجبت (مترونا) وتساءلت من تكون هذه السيدة؟! ومن تكون هاتان الطفلتان... فقالت في صوت شاع فيه ما يجول في نفسها من دهش.

- (الست أمها إذن؟!)

- (كلا... يا سيدتي الفاضلة... لست أمها، ولست إحدى قريباتهما... لقد تبنيتهما...)

فزاد عجب (مترونا) وهي تقول:

- (ليستا طفلتيك... وتحبينهما هذا الحب؟!)

- (ليس لي حيلة في ذلك؟! أطعمهما وأربيهما... ولقد رزقني الله ولداً ولكنني احتسبته... وما كنت أحسبه مثل حبي هاتين الطفلتين!

وطفرت من عينها دمعة حارة... تألقت في مقلتها... ثم لم تلبث أن انحدرت على وجنها... فمسحتها في هدوء وحزن فقالت مترونا في أسف وتأثر: -

- (معذرة... ما كنت أحسب أن هذا يجلب إلى نفسك الحزن والألم... ولكن من هي أم هاتين الطفلتين؟.)

- 3 -

طفقت المرأة تحدثهم بقصة هاتين الطفلتين... وقد شاع الحزن في صوتها، وأرتسم الألم على جبينها فقالت:) إنها لقصة فاجعة! لقد قضى أبوهما يوم الثلاثاء، ولحقت به أمهما يوم الجمعة بعد أن وضعهما... وكنت أنا وزوجي نعيش ككل الفلاحين في بساطة عيش ودقة حال، وكانت دارنا مجاورة لدارهم. لقد مات أبوهما وكان يقطع الأخشاب في الغاية تحت جذع شجرة هوت عليه من حالق، فسمعته وفاضت روحه قبل أن يبلغوا به الدار.

وبعد ثلاثة أيام. وضعت زوجته هذين التوأمتين - ولم يكن لها من ناصر أو معين فوضعتهما وحيدة... ولقيت منيتها وحيدة! وفي اليوم التالي توجهت إليها، أنظر ما آلت إليه حالها... فما كدت أتخطى الكوخ، حتى وجدتها متيبسة الجسد وقد علت وجهها صفرة الموت... وتدحرج جسدها فوق هذه الطفلة، فأصاب ساقها العرج!

وجاء القوم من القرية - وكلهم حزين، يأكل قلبه الألم - فكفنوها في خال وحملوها إلى المقبرة، ودفنوها جوار زوجها... لقد كانت الطيبة تملأ نفوسهم والعطف يفيض من قلوبهم! ولكن هاتين الطفلتين أصبحتا ومالهما من ولي أو كفيل... وكنت حينئذ المرأة الوحيدة في القرية التي عندها طفل لم يتجاوز أسبوعه التاسع... فضممتها إلى صدري... وعدت بهما إلى كوخي. فلما اجتمع الفلاحون راحوا يفكرون ويطيلون التفكير في أمرهما، وأخيراً، قالوا لي: عليك العناية بهما الآن يا ماري... وسوف ندبر أمرهما فيما بعد!)

فأخذت على عاتقي أن أرضع هذه الطفلة الصحيحة، وأدع العرجاء... فما كنت أحسب أنها ستعيش. ولكني تساءلت: بأي ذنب تعاني هذه الطفلة ألم الجوع؟! فما لبثت الرحمة أن فاضت بين جوانحي... فرحت أرضعهما مع طفلي... وقد كنت لبانة يتفجر اللبن من ثديي في فيض لا ينقطع، وكان الله يأتيني برزق هاتين الطفلتين... فترعرعتا على حين توفى الله طفلي

الوحيد، قبل أن يبلغ السنتين... وقد أقبلت علينا الدنيا بعد انصرافها عنا... فزاد حبي لهما وحناني عليهما...

أفعلمتم الآن سبب ذلك الحب؟! إنهما سعادتي في هذه الحياة، وأملي في هذه الدنيا!) وضمت (السيدة) الطفلة العرجاء إلى صدرها بإحدى يديها، بينما ارتفعت يدها الأخرى لتمسح دمعة حارة تحدرت على خدها فتنهدت (مترونا)... وقالت في صوت عميق وجرس ندي: (صدق من قال) يعيش المرؤ بغير والديه! ولكن لا يعيش بغير الله!)

وران الصمت عليهم! وفجأة انبثق في الكوخ نور باهر كأنه وميض البرق في ظلمات الشتاء... وشع الضوء من ذلك الركن الذي يجلس فيه (ميشيل)... فالتقت عنده أبصارهم. وهو على كرسيه يحدق في سماء الغرفة. وقد افتر ثغره من ابتسامة حلوة... أشرقت في وجهة وأضاءت على جبينه...

فلما تهيأت المرأة للذهاب. حيتهم... وأمسكت بطفلتيها. ومضت بهما... فنهض (ميشيل) من

جلسته... ووضع ما كان بيده وخلع عنه مئزره... ثم انحنى لسيمون وزوجته (مترونا) وقال في صوت شكور (وداعاً... أيها السادة... لقد عفى الله عني! وغفر لي ذنبي...)

وراح ميشيل يتألق في ضياء تنبعث من هالة حوله... فانحنى سيمون وقال في صوت ملؤه العجب (لقد حدست إنك لست ببشر يا ميشيل... ولن أثقل عليك بتساؤلي... ولكن آمل أن تخبرني: لماذا تألق وجهك حينما عثرت عليك في الطريق عريان جائعاً؟! ولماذا ابتسمت إلى زوجتي تلك الابتسامة الوضيئة حينما قدمت إليك الطعام؟! وحينما دخل ذلك (السيد الجليل) كوخنا، لنصنع له حذاء إفتر ثغرك عن بسمة مثيلة بها؟. وأخيراً حينما أتت هذه السيدة مع هاتين الطفلتين تألق وجهك بابتسامة ثالثة في جلال وبهاء...

نشدتك الله يا ميشيل أن تطلعني على سر ذلك الإشراق، وعلة هذه الابتسامات الثلاث؟!!)...

قال ميشيل في صوت هادئ رخيم (لقد انبثق الضوء

عني وأشرق النور مني لأن الله يعاقبني... بيد أنه عز وجل غفر لي ذنبي أخيراً! والسر في تلك الابتسامات الثلاث أن الله أرسلني كي أتعلم ثلاث حقائق... وقد تعلمتها!

لقد تعلمت واحدة حينما فاضت الرحمة من قلب زوجتك... فكانت الابتسامة الأولى!!

وتعلمت الثانية حينما سمعت ذلك (السيد) يتحدث عن حذائه، فكانت الابتسامة الثانية!!

وتعلمت الثالثة عندما رأيت هاتين الطفلتين... فكانت الابتسامة الثالثة!)

فقال سيمون في دهش ورجاء (خبرني لماذا عاقبك الله يا ميشيل؟! وما هذه الحقائق الثلاث؟!

فأجاب ميشيل في صوته الهادئ الرخيم (لقد عاقبني الله لأني عصيت له أمراً... لقد كنت... ملاكا أسبح في ملكوته الأعظم... فأنزلني ذات يوم إلى الأرض لأقبض روح امرأة من خلقه... فأبصرها راقدة على سريرها وحيدة - وقد وضعت توأمين! - فلما أحست دنوي

منها، أدركت أني رسول الله إلى روحها... فقالت وقد كادت أن تحبس صوتها الدموع: (أيها الملاك... لقد مات زوجي منذ أيام وما لي من أخت أو عمة أو ولية ترعى طفلتي... فلا تقبض روحي! ودعني أرضعهما وأرعاهما حتى تستويا على سوقهما قبل أن أموت!! إن الأطفال لا تحتمل العيش دون أب أو أم!)

فأصغيت إلى حديثها الرقيق الرفيق... ووضعت إحدى الطفلتين على صدرها والأخرى على ذراعها... وانثنيت آيباً إلى الله تعالى في السماء... وقلت في خشوع (إني عاجز عن أن أقبض روح هذه الأم... لقد قتل زوجها تحت جذع شجرة منذ أيام... وولدت لها اليوم توأمتان... وتوسلت إلى ألا أسلّ روحها قائلة (دعني أرضعها وأرعاهما حتى تستويا على سوقهما قبل أن أموت! إن الأطفال لا تحتمل العيش دون أب أو أم!) (فعدت ويدي عاطلة من روحها!) فسمعت الصوت العلوي يردد الأمر الجليل (اذهب... فاقبضها ولا تكن عودتك إلى السماء قبل تتعلم حقائق ثلاث):

(ما الذي فطر عليه الإنسان؟!)

(ما الذي حرم منه الإنسان؟!)

(ما الذي يعيش به الإنسان؟!)

فعدت طائراً إلى الأرض – وأنا أرتعد فرقاً من غضب الله وأنتفض جزعاً من عقابه.

فقبضت الروح... وسقطت الطفلتان من على صدرها، ومال جسدها على جانبها، فحطم ساق إحدى الطفلتين فالتوت... وهممت بأن أصعد إلى السماء أحمل الروح إليها. ولكن الريح أثقلتني وأخذت أجنحتي تتضاءل وتنسل من ظهري... فصعدت (الروح) وحدها إلى الله... بينما سقطت أنا على الأرض في جانب من الطريق!)

فغر سيمون فاه... ونظرت (مترونا) في بلاهة يشوبها الدهش... لقد أدركا الآن من كان يضمه دارهم ويعيش بينهم ويأكل من طعامهم... فترقرقت الدموع في عيونهما... وراحا يبكيان في نشيج ومزيج من الرهبة والمرح. والإجلال والفرح وانطلق الملاك

يقول: (لم أكن أعرف حاجات البشر من جوع وعرى حتى صرت بشراً مثلهم... كنت وحيداً... يهرؤني القر، واتضور من الجوع... ولا أدري ما الذي أفعله في هذا العالم

وامتد طرفي... فلمحت كنيسة على مرماه. . فتوجهت إليها عساني أجد ثمت موئلا... بيد أنها كانت مغلقة... فتوجهت إلى ما وراءها... حيث قعدت أتوقى بها لريح الصرصر التي تسفح الوجه، وتصك الجسد!

فلما غشى المساء عيون الكون... رأيت إنساناً يقبل وحيداً على... وبينه وبين نفسه حديث... ولأول مرة رأيت وجه الإنسان ذلك الوجه المخيف الميت فأشحت عنه برأسي... وطرق سمعي ذلك الحديث أو تلك الخواطر التي كانت تضطرب بينه وبين نفسه... وتنعكس على شفتيه فيرتفع بها صوته... كان يتساءل كيف أنه يقي جسده لفحة البرد وقشعريرة الشتاء، ويغذي زوجته وصغاره بماله اليسير...

فرمت أفكر (هذا إنسان يدبر ملبساً له في الشتاء...

وطعاماً لعائلة... فكيف يقدم لي يد المساعدة؟!) فلما لمحني اضطرب فرقاً وجزعاً ومر بي في الجانب الآخر من الطريق... فتداركني اليأس، لولا أني أبصرته ينقلب راجعاً إلي... فرفعت إليه بصري فلم أعرفه... لقد كان يرتسم الموت على جبينه... أما الآن فسوف يعيش... لقد عرفت في شخصه وجود الله عز وجل! ألبسني ثوباً عليه، وأخذني معه إلى داره حيث وجدت من هي أقسى قلباً وأشد كلاماً... لقد شاع في صوتها الموت، وأبصرت من حولها الهلاك... كانت تود لو ألقت بي إلى قارعة الطريق... ولو أنها فعلت ذلك لكان الموت من نصيبها! فلما بدأ الرجل يحدثها عن الله عز وجل، لان قلبها ومال إلى فؤادها... فأحضرت لي الطعام، ونظرت إلى وجهي في عطف وشفقة... فعرفت في شخصها وجود الله...

فتذكرت أولى الحقائق الثلاث التي أمرني الله بأن أعلمها (ما الذي فطر عليه الإنسان؟!).

فأدركت أن الذي فطر عليه الإنسان هو (الحب)!!

وقد تولتني البهجة حينما علمت أن الله أوحى إليَّ بالدرس الأول... فافتر ثغري عن الابتسامة الأولى... ولكن بقي على أن أتعلم الحقيقتين الأخرتين: (ما الذي حرم منه الإنسان؟!) و (ما الذي يعيش به الإنسان؟!).

(مضى عام وأنا أعيش بينكم. . فلما أتى ذلك السيد الجليل يأمرنا بصنع حذاء له على ألا يبلى أو يخلق قبل أن تنقضي سنة على ذلك... نظرت إليه... وعلى حين غرة لمحت فوق رأسه رفيقي (ملاك الموت) ولم يره أحد سواي... ولكني عرفته، وأدركت أن الشمس لن تغيب عن الأفق إلا وقد غابت روح ذلك الرجل عن جسده... فتعجبت... إن هذه الرجل يعد العدة لعام بأكمله... ولا يحسب أن قضاءه قد حم... وأن المساء لن يأتي عليه إلا وجثته مسجاة هامدة...).

فتذكرت الحقيقة الثانية، فكأن الله يوحي إلى أن تعلم (ما الذي حرم منه الإنسان؟) فابتسمت للمرة الثانية...

ومكثت أنتظر أن يوحي إلى الله بالحقيقة الثالثة (ما الذي يعيش به الإنسان؟!).

وفي العام السادس. جاءت امرأة ومعها توأمتان صغيرتان فعرفت الطفلتين وعرفت أن الله قد قيض لهما من كان أحن عليهما من أمهما... فعاشتا وترعرعتا!

ولما سمعت ما قصته علينا من كفلتهما رحت أفكر مستغرقاً (لقد توسلت إلى أن أدعها حية حتى ترعى الطفلتين... الضعيفتين... واعتقدت أنها على حق حينما قالت (إن الأطفال لا تحتمل العيش دون أب أو أم...) بيد أن امرأة غريبة عنهما كفلتهما حتى نمتا وشبتا... وأدركت مبلغ ذلك الحب الذي يختلج بين جوانح بين تلك الظئر الحاضنة... فرأيت في شخصها وجود الله... وتعلمت الحقيقة الثالثة وهي (ما الذي يعيش به الإنسان؟!)... إنه (الحب)... وعلمت أن الله أوحى إلي بالدرس الأخير... وأنه عفى عما تقدم ذنبي ومن عصيان أمره على غير بصيره... فكانت الابتسامة الثالثة!!)

أضحى (الملاك) وهوَ عار مما عليه... يشع من جسده نور قوي يبهر الأبصار...

وراح صوته يخفت وينخفض حتى صار، وكأنه لا يأتي من فيه... بل يأتي... من السماء!

(لقد علمت أن البشر لا يعيشون بالحرص على حياتهم... بل بالحب المغروس في قلوبهم وهل نفع حرص الأم على بنيتها؟! لا بل كان حب الظئر لهما!!

ولقد عشت – عندما كنت إنساناً – لا بالحرص على حياتي... بل بالحب يختلج بين جوانح عابر سبيل... وبالرحمة والعطف الذي انبثق في فؤاده هو وزوجته على...

إن الحب شيء فطر عليه الإنسان وغرس في قلبه... وعليه يعيش وبه يحيا في هذه الدنيا! وكنت احسب أن الله وهب الحياة للبشر، ومنحه الأمل في أن يعيش... بيد أني الآن علمت أشياء أخرى! علمت أن الله لم يخلقه كي يعيش وحيداً فريداً. بل خلقه ألوفاً ساعياً للارتباط بغيره... عرفت أن المرأ مع تخيله أنه

يعيش بالحرص على حياته... فهو يعيش في الحقيقة بالحب... لأن من كان الحب يملأ قلبه... فهو يعيش في الحقيقة بالحب... لأن من كان الحب يملأ قلبه... ففيه نفحة من الله... فالله عز وجل هو الحب... والحب هو الله!!)

ثم ارتفع صوت (الملاك) في جرس ندي يردد أنشودة ملائكية يحمد فيها الله ويثني على آلائه!! فكان الكوخ والأشجار والطيور تتراقص وتهتز وكأنها تسبح بآيات الله... وانحسر سقف الكوخ حيث ارتفع عمود من النور يربط السماء بالأرض... فخر (سيمون) وزوجته وأطفاله وقد ملكت نفوسهم الرهبة والخشوع، وملأت قلوبهم الخشية والإجلال! ونبت (للملاك) جناحان على كتفيه... حيث راح يسبح بهما مصعداً إلى السماء!

فلما أفاق (سيمون)... وراح يقلب طرفه فيما حوله... رأى الكوخ وقد أصبح كما كان. . وليس فيه سوى زوجته (مترونا) وأطفاله الصغار...

إلياس

ترجمة: مصطفى جميل مرسي

يحكى أنه كان يعيش في بلدة واحد من البشاكرة يدعى (إلياس)... قضى أبوه نحبه بعد أن متع ناظريه بزوجة ولده - دون أن يخلف له شيئاً من الأرض يأتي له بريع من الرزق يعيش هو وامرأته عليه. فلم يدع له سوى سبعة من الخيول والأفراس وبقرتين وعشرين رأساً من الغنم...

فشمر إلياس عن ساعد الجد... وكان ماهراً في رعاية الحيوان بارعاً في تربيته ذا جلد ومثابرة، فراح يتولى ماشيته بعنايته، ويهيئ لها من المرعى والمأوى كل ما يدخل في طوقه...

وكان - هو وزوجته - يعملان سحابة يومهما

وجنحاً من ليلهما... ينهضان على تبكير من الغسق... وهما آخر من يأوي إلى مضجعه في العشي. وأقاما على تلك الحال حتى بارك الله في ماشيتهما، وضاعفها. فزادت وتكاثرت عاماً أثر عام، وأتيح لهما وفر فيما يملكان من ثروة ومال...

وحينما وافت السنة الخامسة بعد الثلاثين على تمها صار لإلياس من الخيول مائتان، ومن البقر مائة وخمسون ومن الغنم ألف ومائتان... فأستأجر رجال يحملون عنه عِبءَ الرعي ويقومون على معونته... واتى بأجيرات من النساء يحلبن له ماشيته ويخضون ألبانها ويستخلصون منها الزبد والسمن والجبن (والكميس)

فأيسر (إلياس)... وأخصب جانبه وأرغد عيشه، وراح يعيش في بلهنية ودعة... فعظم مقامه بين جيرته، وذاع شأنه بين من يقنطون في واديه. وأخذ كل امرئ يغبطه ويتحدث عنه – وفي نفسه حسد – (إن إلياس رجل بخيت ذو جد جلب عليه كل ما يراود

أمل الإنسان من رغبات... فهو - دون ريب - سعيد بهذه الدنيا هانئ به تقاطرت على (إلياس) جموع الزوار من كل حدب... فكان يتلقى كل واحد منهم بالترحيب والتكريم، وينحر لهم الخراف ويهيئ لهم موائد حافلة باللذيذ الفخر من الطعام والشراب ويقدم له ما راق لهم من (الكميس) والشاي...

كان لإلياس ولدان وبنات زوجهم جميعاً... وحينما كان في أيام فقره وعسره كان هؤلاء الأبناء عوناً لأبيهم في رعاية قطعانه وحتى إذا ما زخرت خزائنه بالمال سرت إلى نفوسهم عوامل الفساد والتلف. فأقبل واحد منهم على الخمر يعب كؤوسها حتى يضل منه الوعي ويحمل مخمورا إلى داره. ولم يلبث أن قتل في عراك بين أبناء الحي من ذوي النفوس الشريرة.

أما الآخر فقد تزوج بامرأة رقيعة خرقاء، جعلت تسعى بالباطل بين الولد وأبيه حتى أوغرت نفسيهما وأضغنت قلبيهما. فافترقا بعد أن تخلى (إلياس) لأبنه عن جواد وقطيع من الغنم

لم ينقض حين على ذلك حتى تفشى المرض بين الماشية، فأورد كثيرا منها مورد الهلاك والفناء... وساء الحصاد في هذا العام ولم تأت الأرض إلا باليسير... فحصد الموت بعض ما تبقى من الجوع. ثم أغارت قبائل (القرغيز) على أملاك (إلياس) فاستحوذت على البقية الباقية من حيواناته...

وبين ليلة وضحاها أصبح إلياس، فإذا بأمواله قد عبثت بها يد الزمان، وأدبرت عنه الدنيا وهي ساخرة في حين ضعف فيه جسده ووهنت قواه... فباع أثاث داره ثم لم يلبث أن باعها هي الأخرى.

وبات هو وزوجته - وكانت تدعى (شام شماجي) - على الطوى وليس لهما من موئل يأويان إليه، فقد رحل ولدهما وزوجته عن البلدة، وماتت ابنتهما منذ زمن بعيد. فلم يجد الزوجان إلى جانبهما في خريف العمر من يسعى عليهما بالقوت...

وكان لهما جار يدعى (محمد شاه) ليس بالغني وليس بالفقير بل يحيا حياة ذات رخاء ويسر...

فعطف عليهما ورحم كبرهما إذ كان ذا قلب يفيض بالحب وعروق تنبض بالرحمة. فطاف بعقله ما كان عيه (إلياس) من كرم وجود. فقال له: -

تعال وأقم معي يا إلياس أنت وزوجك العجوز... وما عليك سوى أن تفلح حديقة البطيخ في الصيف، وفي الشتاء تطعم الماشية وترعاها... إذا وسع مقدورك هذا!! أما زوجتك الفاضلة (شام شماجي) فسوف تجلب الأفراس وتستخرج لنا من ألبانها (كميساً) طيب المذاق بديع الصنع.

وسأهيئ لكما من الملبس والطعام ما تقر به عيونكما وترومانه فإن أعوزتك حاجة بعد ذلك فخبرني بأمرها، وإني لأعدك بأن أتيحها لك ما وجدت إلى ذلك سبيلاً...

أقبل (إلياس) وامرأته على العمل في خدمة جارهما. ولعلهما صادفا في أول الأمر صعوبة، وشقت عليهما الخدمة. بيد أنهما لم يمكثا غير قليل حتى تعودا على ذلك، واستقر بهما المقام عنده يعملان له ما يسعهما...

وكان يتسرب الألم والرثاء إلى قلب (محمد شاه) حينما يبصر بهما بعد غناهما العريض وعلة منزلتهما، ينحدر إلى مثل هذه الحال. لقد حرز في نفسه هذا ولكنه أفاد منهما إذا أطلق لهما حرية الأمر، فلم يسعهما سوى أن يتفانيا في خدمته بإخلاص وجد

وذات يوم نزل في ضيافة (محمد شاه) نفر من ذوي قرابته وصديق له من رجال البحر فذبح (إلياس) لهم شاة وسلخها وبعد أن أنضجها على النار، بعث بها إلى الأضياف فأكلوا منها ما طاب لأنفسهم...

وبينما هم قعود على البسط الثمينة يتناقلون الحديث ويرشفون كؤس ا (لكميس) مر بهم إلياس - وقد فرغ من عمله - فلما أبصر (محمد شاه) قال لواحد من أضيافه: (هل لمح طرفك هذا الرجل الذي مر بنا منذ لحظات؟!)

فأجابه الضيف في عجب: (أجل! فما الذي يدعو إلى سؤالك هذا؟!)

- (لقد كان أغنى إنسان في هذه الناحية من الأرض!

إنه يدعى الياس. أما سمعت بذلك الاسم من قبل؟!)

- (لقد طرقت سمعي أخبار عنه مؤكداً. . إني لم أره قبل الآن ولكن شهرته ذاعت كل البقاع!)

- (هذا حق. . بيد أنه الآن صفر اليدين ذو متربة وعسر. فهو يقيم معي هنا يعمل في أرضي ويرعى أغنامي، أما زوجته فتحلب ماشيتي وأفراسي!)

فأدرك الدهش ذلك الضيف ومط شفيتيه وهز رأسه وهو يقول: (الأيام دول من سره زمن ساءته أزمان. فبين عشية وضحاها يصير المرء من أعلى عليين إلى أسفل سافلين!

هل ترى المصيبة تقض مضجع هذا المسكين وتجعله يندب حظه على ما ضاع من بين يديه؟!)

- (ومن يدريك؟! إنه يعيش في هدوء وسكينة يحسن القيام بعمله) فعاد الضيف يقول: (بودي أن أتحدث إليه حيناً هو وزوجته، أفيمكنني هذا؟)

- (ولم لا؟!) وراح السيد ينادي على إلياس: (يا أبت.

هيا اشرب معنا قدحاً من الكميس. وادع زوجتك إلى هنا كذلك.)

فدلف إلياس مع زوجته إلى الحجرة... وبعد أن ألقى تحيته على الأضياف جلس على قرب من الباب، وراح يتمتم بصلات خفية في صوت خفيف... أما زوجته فتجاوزت المكان إلى ستر في ركن منه حيث جلست خلفه مع سيدتها...

وقدم (محمد شاه) إلى إلياس قدحاً من أقداح (الكميس) فتناوله ولسانه يلهج بعبارات الشكر والحمد، وبعد أن تمنى للحاضرين صحة وعافية راح يترشفه على مهل، ثم وضعه جانباً. فقال له الضيف الذي كان يروم رؤيته. (حسن يا أبتاه. أحسب إن حديثنا سوف يثير في نفسك لواعج الحزن والأسف ويبعث في نفسك ذكرى ما كنت تتملكه من دور وضياع ومواش ذهبت هباء مع الريح. . لعلك آسف وضيق النفس بما أنت فيه الآن!

فوضحت على ثغر إلياس ابتسامة هادئة وقال في

صوت رزين (لو إني أخبرتك ما هي السعادة، وما هي عثرة الحظ... لأثار ذلك دوافع الشك لديك في نفسك! فيحسن بك إذن أن تسأل زوجتي. فكل ما في قلوب النساء يجري طلقاً على ألسنتهن... ولسوف تنبئك عن بينة بجلية الأمر!)

فاستدار الضيف نحو الستار. . وهو يقول: (هلا تخبرينا يا جدتي العجوز... كيف أن سعادتكم السابقة تقرن بما يكتنفكم الآن من بؤس وشقاء؟؟)

فأرتفع صوت (شام شماجي) من خلف الستار: هذا ما يدور بخلدي! لقد عشت أنا وزوجي العجوز خمسين عاماً نسعى في سبيل السعادة وننقب عنها، فلم ندرك لها أثراً... ولكنها الآن في هاتين السنتين الأخيرتين - منذ أن ودعنا الغنى ورفعة الشأن، وأصبحنا نعمل كأجيرين بلغنا السعادة وعرفناها على حقيقتها وصرنا ننعم بها كل صباح ومساء... فلسنا نبغي أسعد من أيامنا هذه!)

فرانت الدهشة والعجب على وجوه الأضياف وكذلك

صاحب الدار الذي قام فحسر الستار عن مكان المرأة العجوز وهي جالسة، وقد عقدت يديها على صدرها وراحت تتبسم لزوجها فابتسم هو الآخر لها.

وبعد أن مضت برهة من الصمت تعلقت فيها الأنفاس عادت تقول في صوتا الهادئ: (غني لا أحدثكم بغير الحقيقة... وما في قولي من مبالغة بل هو الحق الخالص... لقد أبلينا ربع قرن من الزمن ونحن نسعى إلى السعادة... وعلى قدر ما كنا أغنياء كانت محرمة علينا. أما الآن وقد صرنا أجيرين لا نملك من متاع الدنيا شيئاً أحسسنا بالسعادة التي لا نود بديلاً منها...)

فقال لها ذلك الضيف متسائلاً: (بالله خبرينا ما هذه السعادة التي تشملك أنت وزوجك في إعسار كما بعد اليسر وادبار الدنيا عنكما بعد إقبالها عليكما؟!)

- (أصبت! حينما كنا أغنياء كان لدينا من المشاغل ما يصرفنا عن إئتناس الزوج بزوجته وتآلف روحينا. وعبادة الله عز وجل... لقد كان الناس يفدون علينا

فنسهر على خدمتهم وتوفير ما يثلج قلوبهم خشية أن تتناولنا ألسنتهم بالسوء ويتحدثون عنا بما نكره... فإذا ما رحلوا كان علينا أن نراقب عمالنا ومن يقومون على خدمتنا حتى لا تنزع بهم دوافع الشر إلى خيانتنا فيما نعهد به إليهم...

كما أننا كنا نحاول أن ننقص أجورهم ونفيد منهم أكثر مما نستحق. فارتكبنا الخطيئة الأولى.

ثم إننا كنا - إذا ما جن الليل - نبيت ونحن أيقاظ خشية أن تفترس الذئاب الوحوش بعض الأغنام أو يعمد فريق من اللصوص إلى سرقتها في غفلة من حراسها. وننهض بين حين وآخر لنطمئن عليها... وغير ذلك مما كان ينشأ من المشاكل، ثم أضف إلى ذلك ما كان ينشب بيني وبين زوجي من شجار ونزاع... فهو يريد شيئاً وأنا أود ما هو ضده فنخطئ ثانية...

وهكذا كنا لا نكاد نتجاوز صعوبة حتى نقابل أخرى... ونستدبر خطيئة حتى نواجه ثانية فعشنا لا نجد إلى السعادة سبيلا!) - (حسن. . والآن.)

- (الآن حينما. . أفيق أنا وزوجي (العزيز) في الصباح بعد نوم هادئ مطمئن لا ينغصه الخوف ولا الفزع. . نتبادل كلمات الحب وعبارات الود... وبدأنا نحيا في هدوء وسلام لا تعكر صفوة تلك الأسباب التي كانت تثير النزاع والشقاق بيننا.

ليس علينا من واجب سوى خدمة ذلك السيد الكريم الذي أحسن إلينا... فنحن نتفانى في العمل لصالحه... حتى لا يحس في وجودنا مضرة به أو ثقلاً عليه... ونتناول غداءنا هنيئاً مع أكواب (الكميس)... وقد توفرت لدينا الأخشاب التي نطعمها النار ونستمتع بدفئها إذا ما اشتدت وطأة البرد ويأتينا سيدنا بالثياب ذات الفراء التي تعوزنا.

أما الوقت فقد بتنا نجد فيه ما يتسع لحديث كل منا إلى الأخر في ود. . و. . غزل. . فنفكر في أنفسنا ونتعبد متقربين إلى الله نسأله الصفح والغفران عما ارتكبناه من الخطيئات. . نعم لقد سعينا خمسين عاماً في سبيل السعادة فلم نجدها إلا الآن!)

فضحك الأضياف. . ولكن إلياس ما لبث أن قال لهم في صوت ذي جرس هادئ وإن شاعت فيه رنة العتاب:

(ليس ثمة مجال للضحك! أيها الرفاق. . فليس هذا الحديث مثاراً للضحك والهزل. . بل عبرة وعظة. . إنها حقيقة الحياة. . لم ندركها إلا حينما توج رأسانا المشيب. .

لقد كنا نحن كذلك سخفاء وحمقى حينما بكينا طويلاً على ما ضاع من ثروة وعلو شأن... ولكن الله - تعالت قدرته هدانا الآن إلى الحقيقة. . فما أجملها وما أجلها. .

إنا لا نذكر هذه الحقيقة لكم ابتغاء السلوى والعزاء لنا ولكن نجلوها على أسماعكم لهدايتكم وخيركم!)

فقال (الملاح) وقد اغرورقت عيناه بالدموع: (إنك لعلى حق يا إلياس. . إنه حديث الحكمة والموعظة. . وقد جاء ذكره في الكتب المقدسة التي نزلها الله ليهدي بها عباده. .)

وأمسك الأضياف عن الضحك. واستغرقوا في فكر عميق.



الخير والشر!

ترجمة: مصطفى جميل مرسي

حدث في الأيام التي خلت وطوتها صفحات الدهر منذ القدم... أن كان ثمة رجل رضي النفس طيب القلب جليل الشأن عظيم القدر... أقبلت عليه الدنيا وأتاحت له وفراً من ماله فملك الضياع والديار... وراح يعيش في ثراء ورغد، ومن حوله جمع من العبيد يقومون على خدمته ويتولون قضاء حاجته. وقد بثهم سيدهم من الود وأخلص لهم من العطف ما جعل أفئدتهم تخفق بحبه وألسنتهم تلهج بحمده!

وراحوا يتيهون بسيدهم فخراً وزهواً، يغبطون أنفسهم على هذا الفضل وهذه النعمة ويعربون لجيرتهم عن مبلغ هناءتهم قائلين:

(لم تطلع الشمس على من يضاهي سيدنا في طيبته ورقة عاطفته... فهو يطعمنا إذا ما أدركنا الجوع، ويخلع علينا من الثياب كل طريف ومن الأبراد كل جميل، ويهيئ لنا أعمالا تتفق ومقدرتنا وقوتنا... وما تلفظت شفتاه يوماً بكلمة سوء يرمينا بها ولا بيت لنا حقداً ولا ضغناً... فما هو كالسادة الآخرين الذين يذيقون عبيدهم هول العذاب ويقسون في عقابهم سواء أحق عليهم أم لم يحق! ولا يحنون عليهم بكلمه عطف ولا يواسونهم إذا ما مسّهم الضر... أما سيدنا فقد وهبه الله قلباً يتمنى لنا الخير ونفساً ترجو لنا السعادة... نحن لا نأمل في حياة أهنأ ولا أرغد من هذه!)

فضاق الشيطان ذرعاً بذلك الحب والود الذي يكنه العبيد لسيدهم، فعمد إلى واحد منهم يدعى (ألب) فسخره ليوغر صدورهم ويشيع بينهم الفتنة والعصيان ويسرب إليهم الفساد...

وبينما هم جلوس ذات يوم يتناقلون حديث العطف

والكرم الذي يسبغه عليهم سيدهم ويحوطهم بفضله... رفع (ألب) صوته قائلا في خبث ودهاء: (إن من الغباء والحمق أن نغرق سيدنا بهذا الحمد ونحيطه بتلك الهالة من المديح... وهو لا يستحقها. فالشيطان قدير وكفيل بأن يكون كيساً رقيق الحاشية معكم إذا ما أديتم له كل ما يروم! فنحن نخدم سيدنا في وفاء وإخلاص ونحقق له كل ما يساور نفسه ويراود فؤاده من بغيات... فما الذي يسعه سوى أن يكون رحيماً كريماً معنا؟! دعونا نحاول أن ندفع إليه ضرراً ما ثم ننظر ما يكون من جلية أمره... وإني لعلى يقين من أنه لا يفضل أقرانه السادة. فلسوف يلقى إساءتكم بمثلها بل وأشد منها...).

فانطلق بقية العبيد ينكرون هذا القول، ويدرءون الشبهات عن سيدهم وولي نعمتهم... بيد أنهم ما لبثوا أن عقدوا فيما بينهم رهناً مع (ألب) الذي أخذ على عاتقه أن يثير حفيظة سيده ويلهب غضبه... وقد تعهدوا بأن يدفعوا إليه بالثياب التي يحرمه منها سيده، ويقوموا مدافعين عنه أمامه أو يعمدوا إلى

إطلاق سراحه أن حبس أو غل بالقيد!

كان (ألب) راعياً مسئولا عن فِرْزِ من الغنم النادرة الغالية التي يعتز بها سيده...

وفي اليوم التالي حينما أقبل سيده في صحبة من أضيافه ليريهم ويمتع ناظرهم بتلك الأغنام الكريمة... غمز (ألب) بحاجبه لرفاقه وكأنه يقول لهم (انظروا الآن إلى أي حد سأثير غضبه وحنقه!).

وتجمّع العبيد يمدون طرفهم من فوق سياج المرعى! وتسلق (الشيطان) شجرة سامقة حيث استقر فوقها وراح يرقب ما سوف يعمله (ألب) خادمه ورسوله!

وتهادى السيد مع صحبه يعرض عليهم شياهه وحملانه... وانثنى يقول لهم وقد رنّ في صوته جرس الإعجاب والزهو: (إنها جميعاً كريمة نادرة، ولكن بينها كبشاً أصوف أعقص القرن - لا يقدر بمال - أعتز به كما أعتز بمقلتي!).

وشاع الاضطراب بين حشد الأغنام، فانطلقت تعدو إلى جهة أخرى من المرعى، فلم تنهز للزائرين سانحة

لرؤية ذلك الكبش الذي نوه صاحبه بجلال قيمته وعظم شأنه...

ولم تكد تستقر الشياه في مكانها حتى أثارها (ألب) من جديد فعادت تجري إلى كنف آخر، وهي تضطرب فيما بينها، وفوَّت على الزائرين نهزة اجتلائها وتبيُّن الكبش. . فلم يجد السيد بداً – وقد أدركه العناء وبرح به الإعياء – من أن يدعو (ألب) قائلاً: (أرجوك أن تحول بين ذلك الكبش الأعقص القرنين وبين الهرب وأمسك به معتنياً حتى تتاح لنا رؤيته)!

ما كاد السيد يقول ذلك، حتى انطلق (ألب) بين الشياه كالأسد الذي يسعى بين رعيل من الظباء! وقبض على صوفة الكبش في عجلة وتناول رجلاً من أرجله فلواها في شدة حتى تهشمت عظامها وصارت له قعقعة الغصن اليابس حينما بطؤه الإنسان. . لقد حطم ساقه وجعله يخر على الأرض وهو يثأج ويثغي في ألم. . ثم لم يلبث (ألب). أن أمسك برجل أخرى وحاول أن يلحق بها ما أصاب سابقتها!

فصاح الزائرون في جزع، وهتف العبيد في هيعة وفزع. وطرب الشيطان وهو قابع في مكانه على الشجرة، وهلل فرحاً لما رأى من نجاح خادمه وهو يسعى لإثارة سيده! وتقطَّب جبين السيد وعلتْه كآبة سوداء تنذر بعاصفة هوجاء، وزمهرت عيناه وقد اتقد فيهما لهيب الغضب والحنق والسخط.. وقد كاد أن ينشق من الغيظ.. بيد أنه طأطأ برأسه ولم ينبس ببنت شفه..

ران الصمت - ولكنه صمت رهيب - على الأضياف وعلى العبيد وقد تعلقت أنفاسهم يترقبون ما سوف يتمخض عن هذه الجناية على الكبش المسكين الذي لا يُلفى له نظير!

وبعد هنيهة من السكون، هز السيد كتفيه وكأنه قد تخلص من حمل ثقيل كان يجثم على قلبه... ثم لم يلبث طويلا حتى رفع رأسه ومد بصره إلى الأفق البعيد مستغرقا في فكره لا يريم!

وبغتة! غاب التقطب عن صفحة جبينه وانفجرت

أسارير وجهه وهدأت نفسه وقد عصف بها الاضطراب... ونظر إلى (ألب) في عطف وعلى ثغره ابتسامة عذبة... وقال في صوت رقيق شاعت فيه الوداعة والطمأنينة:

(إيه... يا ألب... لقد أغواك صاحبك الشيطان بإثارة غضبي ولكني سوف أخيّب مسعاه وأثير غضبه هو... فلست بحانق عليك ولا ساخط منك... إنك لتخشى عقابي ويداعب نفسك أمل في أن أعتق رقبتك! فاعلم - إذن - أني لن أمسّك بسوء، كما أني - أمام هؤلاء الأضياف وتحت سمعهم وبصرهم - أطلق حريتك... فاذهب أينما شئت... فأنت حر من هذا اليوم. ولك أن تحمل معك ما تود من ملبس وطعام.)

وانثنى السيد عائداً مع رفقته إلى داره في هدوء وبشر أما الشيطان - وقد باء مسعاه بالخسران المبين - فقد هوى من فوق الشجرة... وغار في الأرض...

حبة من القمح كبيضة الدجاج!

بينما الصبية في لهوهم يعبثون ذات يوم... عثر أحدهم في ثلمة في الأرض على شئ عجيب فيه مشابه من حبة القمح. . بيد أنه كبير في حجمه حتى كاد أن يداني بيضة الدجاجة!!

ومر بهم – وقد استخفهم المرح وتملكهم الفرح بلقيتهم – مسافر من جوّابي البقاع. . فلما أبصر ذلك الشيء بين أناملهم، عوضهم عنه بفلس وحمله معه إلى المدينة. . حيث باعه للملك بمال كثير كعجيبة من العجائب التي تمخض عنها الزمن...

فدعا الملك إلى مجلسه أهل العلم وأولي الحكمة وأرادهم أن يأتوه بحقيقة ذلك الشيء... فانثنى

العلماء إلى كتبهم يتفحصونها، وانقلب الحكماء إلى عقولهم يستحثونها. ولكنهم لم يحيروا لهذا الشيء معرفة لماهيته وإدراكاً لحقيقته! حتى كان اليوم الذي طارت فيه دجاجة إلى عتبة النافذة حيث ترك ذلك الشيء العجيب عليها. . فراحت تضرب فيه بمنقارها حتى خلفت ثقباً في جانب منه! ويومها أدرك العلماء أن ذلك الشيء ليس إلا حبة من القمح!

فلما حملوا إلى الملك ذلك النبأ. . اشتدت حيرته وتزايد عجبه وأمرهم بالبحث في أي يحن من الزمن وفي أي بقعة من الأرض. كان الناس يزرعون مثل هذا القمح!

فعاد العلماء إلى كتبهم يقلبونها وانثنى أهل الحكمة إلى عقولهم يتروون من جديد. . ولكنهم باءوا بمثل ما كان نصيبهم في المرة الأولى! فذهب إلى الملك وفد منهم. . وقال له:

– ليس في قدرتنا الإجابة على ما تطلبه مولانا! فما حوت كتبنا نبأ عنه. . ولا انتهت عقولنا إلى فهم له. . ولكن في مكنة مولانا أن يسأل الفلاحين لعل بعضهم

يعلم عن آبائه. . في أي حين وفي أي بقعة كان القمح يزرع في مثل هذا الحجم!) فأمر الملك أن ينبعث أعوانه في أرجاء البلاد وينتشروا في مختلف ربوعها. ويأتوه ببعض الفلاحين الذين بلغوا من العمر عتياً.

فلم يلبثوا بعد حين أن فازوا ببغيتهم. . فأحضروا إلى الملك رجل تقدمت به السنين فأحنى ظهره ثقلها. . فراح يتوكأ على دعامتينز معروق الوجه، شاحب اللون مهدل العارضين مغضن البشرة. .

فناوله الملك حبة القمح... بيد أن كفافة بصره قصرت به عن رؤيتها... فراح يتحسسها بين أنامله الجاسية. فسأله الملك:

(هل لك في أن تخبرنا... أيها العجوز عن المكان الذي كان يزرع فيه مثل هذه القمحة؟! ونبئنا إن كنت قد اشتريت أو زرعت شيئاً مثلها في حقولك؟!)

كان بسمع الشيخ وقر جعله عاجزاً عن الإصغاء إلى ما قاله الملك... بيد أنه لم يلبث أن أدركه في مشقة وجهد. فقال بعد أن مكث حيناً لا ينبس:

- (كلا... إني لم أزرع ولم أحصد مثلها قط في حقلي. كما أني لم أشتر أبداً شيئاً يشبهها... وحينما كنا نتبايع القمح كانت حبوبه صغيرة في مثل حجمها اليوم... غير أنه يجمل بك أن تسأل أبي لعله سمعه قد وعى عن الفج الذي كانت تزرع فيه!)

فبعث الملك برجاله في طلب والد الشيخ... فعادوا به وهو يمشي معتمداً على عصا غليظة... فلما ناوله الملك حبة القمح... قلبها بين يديه، وراح يمعن فيها النظر، وقد عجز الكبر عن أن يذهب بحدته! فسأله الملك: (أما في قدرتك أيها العجوز أن تخبرنا عن المكان الذي كان يزرع فيه مثل هذه القمحة؟! وهلا أنبأتنا إن كنت قد اشتريت أو زرعت مثلها في حقولك؟)

لم يذهب الثقل بمسمع الشيخ، بل ما زال سمعه خيراً من سمع ولده. . فأجاب الملك في صوت هادئ رزين:

- (كلا! إني لم أزرع ولم أحصد مثلها في حقلي! كما أني لم أشتر شيئاً يشبهها! فما كان للنقود تداول

في أيامنا. . فكان كل امئ يزرع قمحة... وما زاد عن حاجته يهبه من في عوز!

لست أدري أين كان يزرع مثل هذا القمح... ولكنني أعتقد أن القمح في عهدنا كان أكبر حجماً وأكثر دقيقاً منه في أيامنا هذه... بيد أنه - مع ذلك - لم يبلغ حجم هذه القمحة. وأحسبك واجداً عند أبي فائدة وعلماً عنها! فسله)

فأرسل الملك من يأتي بوالد الشيخ. . فغابوا حيناً، ثم عادوا به إلى حضرة الملك! يسعى في سيره في خفة ونشاط له بصر ثاقب وسمع مرهف... ولسان ينطق في جلاء!

فلما مد الملك له يداً بحبة القمح... تناولها منه... وراح يقلبها في راحتيه... ويمعن فيها النظر. . ثم لم يلبث أن ارتفع صوته في هدوء (لم أر مثل هذه القمحة إلا منذ زمن سحيق. . سحيق جداً!) وقضم شطراً من الحبة بثناياه، وأخذ يتذوقها بفمه!! واستطرد في قوله:

- (إنها نفس النوع!) فسأله الملك:

- (ألا حدثنا أيها الجد الوقور... في أي مكان وفي أي زمان، كان الناس يزرعون هذا القمح... وهلا خبرتنا إن كنت قد ابتعت أو زرعت مثلها في حقولك؟!)

فأجابه الشيخ: -

... كان هذا القمح يزرع في كل البقاع في أيامي لقد طعمته في شبابي، وأطعمت غيري منه! وطالما زرعناه في أراضينا. . وحصدناه... ودرسناه!!)

فقال الملك وقد استبد به العجب وتملكه الفضول: -

(هل كنت تبتاعه؟! أم كنت تزرعه بيديك؟!)

فتريث الشيخ حيناً... كأنه يسبر غور الماضي، ويستعيد ذكراه - وقد ضرب النسيان عليها سجنه وأرخى دونها سندوله - ثم أجابه: (لم يكن ثمت واحد. . في أيامي. . يجسر على أن يأتي هذه الخطيئة. . أن يبيع أو يشتري الخبز. . ولم نكن ندري شيئاً عن هذه النقود التي تتداولونها الآن. . فكان لكل امرئ كفايته من القمح والزاد!)

- بالله خبرني أين توجد أراضيك حيث كنت تزرع فيها ذلك القمح؟!)

فتبسم الشيخ وأجابه في هدوء:

- (كان حقلي هو (أرض الله) الواسعة... أينما زرعت وحيثما غرست فهذا حقلي... فكانت الأرض مباحة طليقة بين الناس! وما كنت تجد واحداً يجرؤ على القول بأن هذه الأرض ملكه. . بل العمل هو وحده الذي كان ملكاً للناس): - (هلا أجبتني أيها الجد الكريم. . إلى سؤالين آخرين؟ أولهما: لماذا كانت الأرض تنبت مثل هذا القمح، ثم لماذا كفت عن إخراجه الآن؟!!

وثانيهما: ما العلة في أن حفيدك لا يخطو إلا على دعامتين وابنك يتوكأ على عصا واحدة. أما أنت فلا تعتد على شئ؟! وما الذي جعلك ذا بصر ثاقب وسمع مرهف وصوت واضح جلي تهفو الأذن لسماعه؟!)

فهز الشيخ رأسه، وما زالت البسمة مرتسمة على شفتيه وقال:

- (لقد صار الأمر إلى هذا الحال. . لأن الناس كفوا عن العيش بما تعمله أيديهم، وراحوا يسخرون غيرهم لعمل ما تعوزهم الحاجة إليه!

في أيامنا الخوالي. . كان الناس يعيشون حسب ما سنته لهم شريعة (الله). . (العامل بعمله)! فلم تملأ الضغائن نفوسهم ولم تفسد الأحقاد قلوبهم. . ولم يكن بينهم من ينظر بعين الحسد إلى ما متع الله به بعضاً منهم!)

فتيات صغيرات أعقل من الرجال

ترجمة: ويكي مصدر

كان الزمن بداية عيد الفصح. انتهت أيام التنقل بالمزلجات؛ لكن الثلج ما يزال على الباحات، وكان الماء يجري في جداول على شوارع القرية.

تقابلت فتاتان من بيتين مختلفين في زقاق بين منزلين، حيث شكلت المياه بركا كبيرة بعد أن شقّت طريقها عبر المزارع. كانت إحدى الفتاتان ضئيلة الحجم والأخرى أكبر منها قليلا. وقامت أمهاتهما بإلباسهما ثيابا جديدة. كان مئزر الفتاة الصغيرة أزرقا ومئزر الكبرى أصفرا، ولبست كلتاهما منديلا أحمر اللون على رأسيهما. التقت الفتاتان فور

عودتهما من الكنيسة، وأرت كل واحدة للأخرى ثيابها الجديدة، ثم بدأتا باللعب. وبعدها فكرت الفتاتان باللعب عند برك الماء، وتقدمت الفتاة الصغرى لتضع قدمها على البركة، ولكن الكبرى أوقفتها.

قالت: «لا تدخلي في الماء يا مالاشا، ستؤنبك أمك. سأخلع حذائي وجوربي، وعليك أن تقومي بالمثل».

وهذا ما فعلتاه، ثم رفعتا تنورتهما وبدأتا بالمشي في البركة. وصلت المياه إلى كاحل مالاشا، وقالت:

«أخشى أن المياه عميقة يا أكوليا».

ردت عليها: «هيا لا تخافي. لن تكون أعمق من هذا».

وعندما اقتربتا من بعضهما، قالت أكوليا:

«انتبهي يا مالاشا، ولا ترشّي الماء. امشي بحذر».

لم تنهِ أكوليا كلامها حتى أنزلت مالاشا قدمها بقوّة لدرجة أن الماء تناثر على ثوب أكوليا، كما تناثر على عينيها وأنفها.

عندما رأت أكوليا البقع على ثوبها، غضبت وجرت

نحو مالاشا لتضربها. خافت مالاشا عندما رأت انها أوقعت نفسها في مشكلة، وخرجت بسرعة من البحيرة وأرادت أن تهرب إلى البيت. وفي تلك اللحظة تصادف أن مرّت أم أكوليا قربهم ورأت تنورة ابنتها وهي مبللة وأكمامها متسخة، وقالت:

«أيتها الفتاة الشقية والقذرة، ما الذي كنتِ تفعلينه؟»

ردت الفتاة: «مالاشا فعلت هذا عمدا».

عندها أمسكت أم أكوليا بمالاشا وصفعتها في مؤخر عنقها. بدأت مالاشا بالعويل حتى سُمع صوتها في كل الشارع. ثم خرجت أمها.

قالت: «لماذا تضربين ابنتي؟» وبدأت تؤنب جارتها. بدأ الكلام يحتدّ بينهما وانقلب إلى شجار غاضب. أتى الرجال وتجمعوا في الشارع، كلهم يصرخون ولا أحد يستمع. كانوا جميعا يتخاصمون مع بعضهم حتى قام أحدهم بدفع الآخر، وكاد هذا الخصام أن ينقلب إلى لكمات، وعندها أتت جدة أكوليا العجوز ودخلت

بينهم، وحاولت أن تهدئ الأمور.

«كيف تفكرون بهذا أيها الأصدقاء؟ هل من الصواب التصرف هكذا؟ وفي يوم مثل هذا أيضا! إنه وقت للفرح، وليس لفعل الحماقات مثل هذه».

لم يستمع أحد للمرأة العجوز وكادوا يوقعونها أرضا. ولم يكن بإمكانها أن تسكت الحشد، لولا تدخل أكوليا ومالاشا بنفسيهما.

في الوقت الذي كانت فيه النساء يضربن بعضهن، قامت أكوليا بمسح الطين عن مئزرها وعادت إلى البركة. ثم أخذت حجرا وقامت بحفر الأرض أمام البركة لتصنع قناة يجري منها الماء إلى الشارع. انضمت مالاشا إليها وأخذت شظية خشب وساعدتها في حفر القناة. كان الرجال على وشك ضرب بعضهم. بدأت مياه البركة تجري عبر القناة عبر الشارع ونحو البقعة التي تقف بها الجدة التي ظلت تحاول تهدئة الجمع. قامت الفتاتان بالجري وراء الماء، ووقفت مالاشا على جانب، ووقفت أكوليا على الجانب الآخر.

قالت أكوليا: «أمسكي بها يا مالاشا! أمسكي بها!»؛ أما مالاشا فقد منعها الضحك من الكلام.

كانت الفتاتان سعيدتين وهما تشاهدان الشظية تطفو في القناة، وانطلقتا نحو الرجال. نظرت العجوز إليهما وقالت للرجال:

«ألا تخجلون من أنفسكم؟ تتخاصمون نيابة عن الفتاتين، وهما قد نسيتا الموضوع بأكمله، وهما تلعبان بسعادة معا. إنهن أعقل منكم جميعا».

نظر الرجال إلى الفتاتين وأحسوا بالخجل وضحكوا على أنفسهم، وعاد كل منهم إلى بيته.

إن لم تعودوا وتصيروا مثل الأطفال، فلن تدخلوا ملكوت السماوات.

يخرج صانع أحذية رقيق ومتواضع يدعى سيمون يومًا ما لشراء جلود الأغنام من أجل خياطة معطف شتوي لزوجته ونفسه، سيتم إنفاق الأموال القليلة التي يكسبها سيمون لإطعام زوجته وأطفاله.
يقرر سيمون أنه من أجل الحصول على الجلود ، يجب عليه الذهاب في جولة لاستلام الروبل الخمسة وعشرين كوبيك المستحقة له من قبل زبائنه. وبينما كان يتوجه لجمع الأموال، اقترض أيضًا مذكرة بثلاث روبل من صندوق أموال زوجته. أثناء الذهاب إلى مجموعته ، تمكن فقط من تلقي عشرين كوبيك بدلاً من المبلغ الكامل.
ولشعوره بالإحباط سيقوم سيمون بإنفاق عشرين كوبيك على الفودكا ويعود إلى المنزل في حالة سكر، لكنه يتذكر فجأة كيف أنه لن ينجو من الشتاء بدون معطف فرو.